مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 74

تجربة في الترجمة*

إحسان عباس

لم تكن إقامتي في الخمسينات، في الخرطوم، توجهني إلى الترجمة، إذ كنت حديث عهد بالتدريس في كلية جامعية (هي كلية غوردن التذكارية)، يشغلني ما أمامي من المهام التدريسية والتعرف إلى ناس لم أكن أعرفهم، وبيئة يكاد يكون كل شيء فيها غير مألوف لديّ. ومن ناحية أُخرى لم تكن في الخرطوم حينئذ دار نشر أقدّم لها ما أترجمه، لو خطر لي أن أقوم بذلك. ولكن في حوالي منتصف الخمسينات وصلني من بيروت كتاب عنوانه The Armed Vision مؤلفه ستانلي هايمن (S. Hyman) أرسله صديقي الدكتور محمد يوسف نجم المدرس بالجامعة الأميركية في بيروت لنتقاسم الكتاب المذكور، أي أترجم أنا نصفه ويترجم هو نصفه الثاني. وقرأت الكتاب كلَّه فإذا هو كتاب يتحدث عن أشهر النقاد الغربيين وعن منهج كل واحد منهم ومميزاته. وتريثت أفكر وأعيد قراءة بعض الفصول وأحاول أن أضع بعض الملاحظات التي قد تعرض لي عن الصعوبات التي قد أواجهها في الترجمة. لم يكن الكتاب سهلاً، لأن موضوعه كان جديداً في نظري. وكنت في أيام الطلبة في الكلية العربية بالقدس قد ترجمت كتاب أرسطو "البويطيقا" (كتاب الشعر) عن ترجمة إنكليزية؛ وكان كتاب الشعر قد ترجم إلى العربية قبل قرون عديدة، ترجمه متى بن يونس المنطقي ترجمةً حرفية، ولم أكن أعرف هذه الترجمة ولا رأيتها، ولكن الترجمة الإنكليزية كانت تشير إلى بعض ما جاء في الترجمة العربية القديمة. لكن شتان بين كتاب أرسطو وكتاب هايمن، إذ كان الثاني يعرض لجهود عدد غير قليل من النقاد وإلى مناهج ومقاربات متباينة، وكان كتاب أرسطو يعرض نظرية المحاكاة، ويتحدث عن التراجيديا والكوميديا، وكانت معرفتي بالمسرح الحديث قد ذلّلت صعوبات كثيرة في كتاب أرسطو، كما أن معرفة العرب بنظرية المحاكاة التي سمّوها أحياناً "التخييل" قد جعلت ترجمة كتاب أرسطو أمراً غير بالغ الصعوبة. أمّا كتاب هايمن فكان نقداً للنقد وكنت قرأت للتوحيدي قوله "إن الكلام على الكلام صعب" وصدق التوحيدي لأن نقد النقد شيء مركّب لا بسيط، وهو يحمل في ذاته صعوبة شديدة. ومع ذلك، وبما أن الكتاب يحمل معرفة جديدة بالنسبة إليّ، رأيت أنّ نقله للغة العربية مفيد في حركة النقد التي يسيطر عليها معارك كلامية، ومهاترات لا ضرورة لها ولا نفع. فأقدمت على ترجمة الكتاب وأنا

* آخر ما كتبه الدكتور إحسان عباس قبل وفاته في 29 تموز/يوليو 2003.

حـائر كيف يمكن أن يترجم عنوانـه. فلمّـا أرســلـت الترجمـة إلى بيروت، وظهر الكتـاب مطبوعاً وجدتُ الدكتور نجم قد اختـار لـه "النقد الأدبي ومدارســـه الحديثة". وأذكر أن شـخصــاً لقيني بعد صـدور الكتاب وأن أسـتـاذاً لـه حين رأى الكتـاب مترجماً قـال: "أكاد أقول إنـه لا يُقدم على ترجمـة هـذا الكتـاب رجل عـاقـل"، فقلت لنـاقـل هـذا الكلام: هـذه شهادة يعتز بهـا اللذان ترجمـا الكتـاب، لأن قـائلهـا يشير إلى الصعوبة التي كابدنـاهـا أنـا وزميلي في الترجمة.

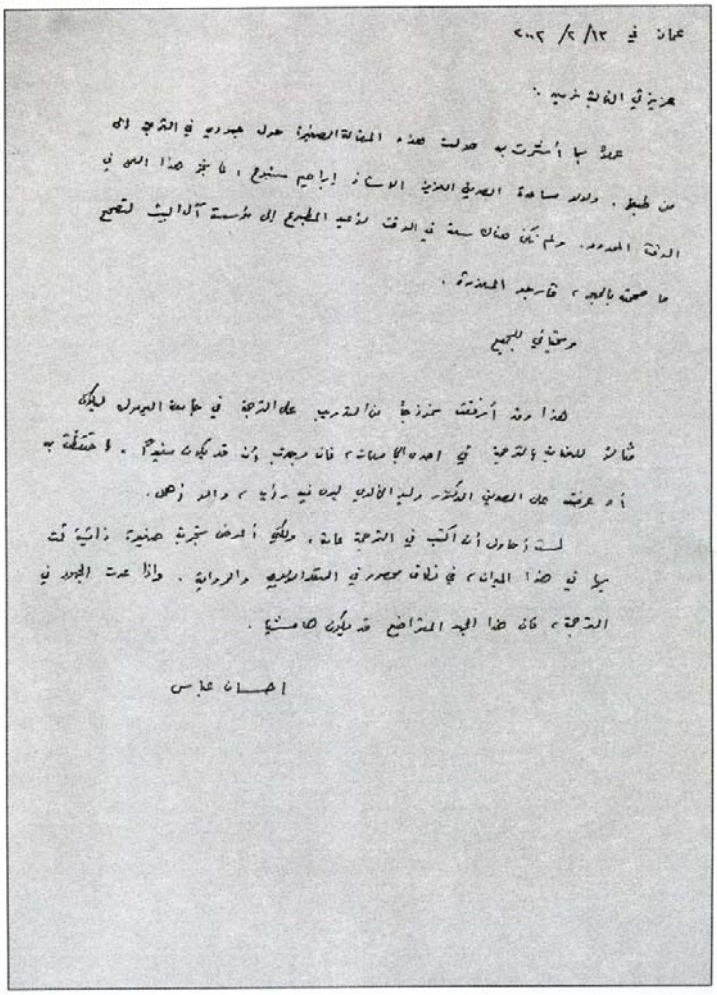

عمان في ١٢/٢/٢٠٠٢

عزيزي الدكتور نجم:

عذراً بما أشرت به حول هذه المقالة الصغيرة حول جهودي في الترجمة الى من خط. ولولا مساعدة الصديق العزيز الاستاذ إبراهيم سنبرغ، لما تم هذا العمل في الوقت المحدود. ولم تكن هناك سعة في الوقت لأبعث المطبوع الى مؤسسة آل البيت لتصحيح ما صحبه بالجهد، فأرجو المعذرة.

ومحبتي للجميع

هذا وقد أرفقت نموذجاً من التدريب على الترجمة في جامعة اليرموك لتلك الخاصة للغات والترجمة في احدى الامسيات، فان رغبت بأن يكون مفيداً، أحفظه به أو عرضته على الصديق الدكتور وليد الآلوسي ليبدي فيه رأيه، والأمر لك.

لست أحاول أن أكتب في الترجمة عامة، ولكني أعرض تجربة صغيرة ذاتية قمت بها في هذا الميدان، في نطاق محصور في المقالة والرواية. وإذا عدت الجهود في الترجمة، فان هذا الجهد المتواضع قد يكون هامشياً.

احسان عباس

كان هذا أول تجربة أواجهها في ميدان الترجمة، ولو كانت الترجمة مخفقة لربما حملتني على هجر الترجمة، لكن نجاح هذه الخطوة شجعني أنا وزميلي على الاستمرار فيها.

وفي أواخر الخمســينات أنهيت ترجمة كتاب من تـأليف كارلوس بيكر (C. Baker)، وعنوانه *Hemingway: The Writer as Artist*، وكان أســهل من الكتاب الأول، لأنـه حول شـخصـية همنغواي، ودراسـة تطبيقية في قصصـه ورواياتـه، بأسـلوب سـهل ممتـع، وقد

استطعت ترجمة الكتاب بأمانة وأن أختار له لغة قريبة في بساطتها من لغة مؤلفه، وقد أفدت من هذا الكتاب أن النقد قد يكتب بلغة تصل إلى جميع المثقفين سواء أكانوا قد قرأوا قصص همنغواي ورواياته أو لم يقرأوها، وذلك راجع إلى طبيعة الكتاب نفسه فإن مؤلفه كان رئيس قسم اللغة الإنكليزية بجامعة برنستون، وقد مَرَنَ على تدريب الطلاب في ميدان النقد التطبيقي في الجامعة، وهو يربط بين تطور حياة همنغواي وبين تطور نتاجه ابتداء من الحقبة الباريسية في حياته حتى كتاب: "الملاح الشيخ والبحر" *(The Old Man and the Sea)* ولذلك كان سائغاً ممتعاً وهو حافل بنظرات نقدية جميلة. ولقد لقيت مؤلفه حين ذهبت إلى جامعة برنستون أستاذاً زائراً سنة 1975 وتحدثنا عن كتابه، وكنت لا أزال معجباً بالكتاب وبموضوعه وبمؤلفه، وقد صدر عن دار مكتبة الحياة ببيروت سنة 1959.

كان كتاب الأستاذ بيكر فترة راحة بين صعوبتين، فإذا كان كتاب هايمن صعباً فإن كتاب إرنست كاسيرر (E. Cassirer) أشد صعوبة، لأنه في المقام الأول كتاب فلسفي يحمل خلاصة نظرية كاتبه الفلسفية، وعنوانه *An Essay on Man*، وحاولت أن أتعرف إلى المؤلف قبل البدء بالترجمة، فعرفت أنه في الفلسفة من مدرسة الفيلسوف الألماني كانْت، وأنه كان يحفظ بعض فصول كانْت، ويلقيها في محاضراته دون أن يكون بين يديه كتاب، وأنه هاجر في الحرب العالمية الثانية إلى أميركا، وكانت لغته الإنكليزية إذا كتب بها تتطلب مَنْ يراجعها، وأن الكتاب الذي سأترجمه هو خلاصة لكتاب له كبير صدر مترجماً إلى الإنكليزية في ثلاثة أجزاء ضخمة، فكان لا بد لي من أن أطلع على هذا الكتاب الضخم، فصرفت وقتاً طويلاً في قراءته، وهو كتاب يدور حول الأشكال الرمزية، وأن كل شيء في الوجود رمز: اللغة رمز، وكل علم من العلوم رمز، ولذلك كان عنوان كتابه: *The Philosophy of Symbolic Forms* وفي هذا بعض تحوير لمقولة كانْت Human Mind is in need for Images فجاء كاسيرر يقول إن العقل الإنساني في حاجة إلى رموز أو أن الإنسان حيوان ذو رموز، ففلسفة كاسيرر هي أن يبين كيف يشتغل الإنسان بالرموز. إن الصلة بين هذا الكتاب وبين النقد الأدبي صلة غير مباشرة، ولذلك كنت أحاول أن أقنع نفسي أن النقد الأدبي لا يحيا بغير الفلسفة وأنه في حاجة ماسة إليها. وأقرب فلسفة إليه هي الفلسفة التي تدور حول الحضارة الإنسانية ولذلك سميت الكتاب حين ترجمته "فلسفة الحضارة" وجعلت عنوانه الأصلي "مقال في الإنسان" عنواناً فرعياً، وقد نشر الكتاب في دار الأندلس ببيروت سنة 1961.

كانت الأضواء التي تهديني إلى ما أترجمه ما تزال تنبعث من النقد الأدبي. وفي محاولتي لمتابعة هذا الدور اخترت كتاباً يتناول شاعراً أحببت شعره، ورصدت أثر شعره في الشعر العربي الحديث، وذلك هو ت. س. إليوت. فلمّا وقع في يدي كتاب ناقد مشهور عن ذلك الشاعر قلت لنفسي: سيكون هذا الكتاب موضع عنايتي، وبعد أن

اطمأنت نفسي إلى قيمة الكتاب النقدية قررت أن أترجمه؛ ذلك هو كتاب *The Achievement of T. S. Eliot* ومؤلفه هو ف. و. ماثيسن (F. O. Mathiessen). وكان منهج ماثيسن في كتابه مختلفاً عن نهج ك. بيكر في دراسة همنغواي ولعل سبب ذلك أن همنغواي كان قاصاً وروائياً بينما كان إليوت شاعراً مجدداً ومسرحياً وناقداً. ويتألف كتاب ماثيسن بعد المقدمة من تسعة فصول، وكل فصل مشفوع بتعليقات، ويقع في الطبعة العربية، "ت. س. إليوت" التي قامت بنشرها المكتبة العصرية (بيروت – صيدا، 1965)، في 440 صفحة من القطع المتوسط. ولا أصف ترجمتي له بالسهولة أو بالصعوبة، فقد تعوّد قلمي على الترجمة، وأصبحت الكتب متقاربة ما دامت قد خضعت لإرادة ترجمتها.

إلى هذا الحد كان كل ما ترجمته ذا صلة وثيقة أو عارضة بالنقد الأدبي. هل أستمر في هذا الخط أو أبتعد عنه قليلاً؟ ومن دون أن أفكر أي كتاب أختار، صادف أن جاء السيد داتوس سميث (Datus Smith) رئيس مؤسسة فرانكلين إلى بيروت. وحين قابلته قال لي: إن لي أمنية أن أرى رائعة هرمان ملڤل رواية "موبي ديك" – وهي خير أثر كلاسيكي في الرواية الأميركية – مترجمةً إلى اللغة العربية، وقد سألت بعض العارفين من يرشحون لترجمتها، وأكثرهم ذكروا اسمك. قلت له: هذه رواية صعبة لأنها تنتمي إلى بيئة البحر وأنواع الحيتان وأعتقد أن العربية ليست غنية في المصطلحات البحرية وأنواع السفن والحيتان، وفيها صعوبات أُخرى لا تذللها إلاّ طبعة مزوّدة بشروح كافية وتعليقات. قال: يعني ذلك من حيث المبدأ أنك توافق على ترجمتها إذا توافرت الطبعة التي تصفها. قلت: دعني أقرأ الرواية قراءة جديدة، وأقدّر كم من صعوبتها يتلاشى وكم يبقى. فإذا اطمأنت نفسي إلى أن عملي لن يصاب بالإخفاق مضيت في ترجمتها على ضوء النسخة التي طلبتها. وحين عاد رئيس مكتب فرانكلين أرسل إليّ بالبريد نسخة كانت نِعْمَ العون على الترجمة. ووطنت النفس على أن أحتفظ للرواية بمستوى أسلوبيّ رفيع مشابه لأسلوبها في اللغة الإنكليزية. واستغرقت ترجمتها مدة تزيد على سنة ونصف بين التسويد والتبييض والمراجعة والتنقيح، وانسجمتُ كثيراً في الترجمة، حتى لأعدّ ما حاولته في "موبي ديك" قمة عملي في الترجمة، حتى قال لي أخي بكر: أنا لا أحب قراءة الكتب المترجمة (وهو مترجم عريق) ولكني حين بدأت قراءة "موبي ديك" مترجمة إلى العربية لم أضعها جانباً إلاّ بعد أن أنهيتها. وأنا أعتقد أن أخي – رحمه الله – لم يكن يجاملني، فذلك ليس في طبعه. بل أعتقد أن ترجمة "موبي ديك" تستحق الجهد الذي بذلته في ترجمتها.

كل هذه الكتب التي تحدثت عنها كانت لمؤلفين أميركيين، ولهذا نلت جائزة جامعة كولومبيا بنيويورك للترجمة سنة 1983 وكان ذلك مفاجئاً لي وغير متوقع.

لكن عملي في الترجمة لم يقتصر على ما ذكرت. فقد ترجمتُ بحوثاً في الحضارة

الإسلامية وأنا في بيروت، كما ترجمتُ سلسلة بحوث كتبها الأستاذ جورج مقدسي في نظام التعليم الإسلامي، والمدارس، ودور الجامع في الحياة الثقافية ونشرت ما ترجمته في مجلة "الأبحاث" التي تصدرها الجامعة الأميركية ببيروت.

وحين انتقلت إلى عمّان وعملت في تاريخ بلاد الشام ترجمت بحوثاً تاريخية غير كثيرة، من أهمها بحث عن "مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية"، وهو فصل من كتاب: *The Cities of the Eastern Roman Provinces* لمؤلفه المؤرخ A.H.M. Jones. وبعد مدة قصيرة من إقامتي في عمّان دعاني قسم اللغة الإنكليزية في الجامعة الأردنية لتدريس مجموعة من الطلاب الترجمة الأدبية وتدريبهم عليها. فوضعت بين أيدي الطلاب عدداً من القصائد الإنكليزية، ونماذج من القصة القصيرة، وكان درساً حيوياً، وكان إقبال الطلاب على العمل في الترجمة إقبالاً باهراً. وقد وجدت لديهم استعداداً أصيلاً للترجمة.

إن الترجمة على المستوى العام خير حوار بين الحضارات، ولا تستطيع حضارة أن تستغني عن الترجمة، فهي تنمي التواصل الثقافي. وقد عرف العرب أهمية الترجمة للعلوم اليونانية في العصر العباسي، إذ كانت سبب نهضتهم الثقافية أو أحد أسبابها. كما عرفوا ما أفاد الغرب من ترجمة الكتب العربية ذات الأصل اليوناني في عصر النهضة الأوروبية.

أمّا على المستوى الخاص فهي خير وسيلة لترسيخ المعارف الجديدة في نفس المترجم والقارئ. إن من يزعمون أن العقلية العربية مغلقة دون الترجمة لم يدركوا حقيقة العقلية العربية التي لم تكن ضد الترجمة في أي عصر من العصور. لكن الترجمة على نطاق واسع تحتاج إلى تنظيم ومؤسسات تقرر من يترجم وما يترجَم، وتلاحظ الأولويات في الموضوعات. وتشكو الترجمة اليوم في العالم العربي من الفوضى وفقر المصطلح، وكل هذا تقع مسؤوليته على الدول والمؤسسات الثقافية. لا بد من الترجمة في كل قطر عربي، ولا بد من توفير الميزانية للبحوث وللترجمة. ولكن ليس للأقطار العربية المجزأة المال المرصود للبحث وللترجمة. وأكثر الدول العربية يشكو من قلة الدخل، وانتشار الفقر. ولا بد من مساعدة الدول العربية الغنية للدول الفقيرة، وتوجيه الاهتمام إلى البحث العلمي وإلى الترجمة، وإلى إثراء اللغة بإدخال المصطلحات الجديدة كما هي أو بتعريبها.

إن تدريس الترجمة في الجامعات غير كاف، وإن كان موجوداً على نطاق ضيق في أكثر الجامعات العربية.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf